منهج أهل الباطل في قلب الحقائق دراسة عقدية تحليلية في ضوء القرآن الكريم

د. عبد الله بن سليمان الشايع

أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الملك سعود- عضو كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للحسبة وتطبيقاتها المعاصرة.

Falsehood people's approach in changing the truths: an analytical doctrine study in the light of the Holy Qur'an

Dr. Abdullah ben Sulaiman Alsha'e

Assistant Professor of Faith at King Saud University, Member of the King Abdullah ben Abdulaziz Chair for Hisbah and its Contemporary Applications

Abstract:

This article aims to explore the Qur'anic approach in identifying falsehood people's means in championing their falsehood and distorting the truth and to support the people of truth who knew the Prophets and how they suffered from their enemies. It also aims to elicit effective means in confronting these ways in beautifying their falsehood. The study employs the inductive analytical approach, through extrapolating the verses in which Allah tells of the state of the Prophets' enemies, and how to confront them. The study pinpoints these false people's bad methods in changing the truths, claiming they are right, and good people are not. Their approach is based on deceiving people with false words. The believer should be farsighted, reasonable weighting things, analogizing them to the alike in such a way that clarifies every doubt. The one who understands these verses would see others in the right perspective, fair in giving those false people their due. However, he should be careful and farsighted in seeing things as they should be.

Keywords: Falsehood people, truths, the Holy Qur'an, doctrine, means

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان المنهج القرآني في كشف أساليب أهل الباطل في نصرة باطلهم وتشويه الحق، وإلى تثبيت أهل الإيمان بمعرفة ما أصاب الأنبياء قبلهم من أذى أعدائهم، وكذلك لاستنباط الوسائل الناجعة في مواجهة أساليب أهل الباطل في تزيين باطلهم، يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك باستقراء الآيات التي أخبر الله تعالى فيها عن حال أعداء الرسل، ومن ثم استنتاج الوسائل الناجعة في مواجهة أساليبهم، فقد تبين من خلال هذا البحث ما عليه أعداء الدين من قلب الحقائق، وادعاء الحق لأنفسهم، ورمي أهل الحق بالبهتان، ومنهجهم قائم على مخادعة الناس بالألفاظ والشعارات الكاذبة.

والمؤمن يجب أن يكون حصيفا ذا نظر ثاقب لواقعه، عاقلا يزن الأمور بميزانها، ويقيسها بأمثالها، فلا تلتبس عليه الأمور، ولا تشتبه عليه الأحوال، ولا يعمى عن الحقائق.

ومن فهم دلالات تلك الآيات كان أبصر الناس بحقيقة الناس، ولم يمنعه بغضه لأهل الباطل من الإنصاف والعدل، ولم يمنعه عدله من الحيطة وبعد النظر، فالمؤمن ليس بِالْخِبِّ، ولا الْخِبُّ يخدعه.

الكلمات المفتاحية: أهل الباطل، الحقائق، القرآن الكريم، العقيدة، أساليب.

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا مزيدا إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية، ومن منهج أهل الباطل وطريقتهم في صدهم عن الحق قلب الحقائق؛ فيدعون الصلاح والإصلاح والخير، ويرمون أهل الحق بالبهتان، ويصفونهم بالفساد والضلال.

ومن أساليبهم في قلب الحقائق زخرفة القول وتمويهه حتى يروج على الجهلة والبسطاء، وهذا منهج أعداء الرسل جميعاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ **زُخْرُفَ الْقَوْلِ** غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والمعنى كما قال العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى: "أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؛ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولا، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظا غير وافية، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها، كائنا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير"(١).

وقد بليت الأمة بأعداء لها من خارجها وداخلها، يحاربون الحق الذي كان عليه النبي ﷺ، ويزينون ما هم عليه من الباطل، ويلمزون أهل الحق بأشنع الأوصاف، ويزعمون أنهم أهدى سبيلا وأقوم قيلا، وأنهم يريدون الخير والصلاح للبشرية.

وقد عُنِيَ القرآن بهذا الموضوع عناية كبيرة، فكشف مسالك أهل الباطل في قلب الحقائق وتضليل العباد، وأبان عن علامات الضلال والانحراف، وكشف عن خبايا النفوس التي قد تخفى على كثير من

الناس، كما قال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

ولم يألُ أهل الحق على مر العصور في بيان الحق والرد على أهل الباطل، وفي كشف باطلهم والتعريف بمنهجهم؛ إلا أن وسائل أهل الباطل تتجدد في كل زمن، وزادت شدتها مع ظهور وسائل الإعلام المختلفة، وهذا يحتم الذب عن حياض الحق بأكمل منهج وأتمه وهو منهج القرآن الكريم؛ فإنه أتى بكليات تنتظم بيان الحق، وتعرية منهج أهل الباطل، مهما اختلفت وسائلهم، فهم كما قال الله جل في علاه: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

ومساهمة في هذا الباب اجتهدت في جميع الآيات التي عالجت هذا الموضوع، وأوردت باختصار بعض ما قاله أهل العلم فيها، وبذلت الوسع في ترتيبه وصياغته بأسلوب سهل، وجعلته بعنوان: "منهج أهل الباطل في قلب الحقائق – دراسة عقدية تحليلية في ضوء القرآن الكريم".

أهمية الموضوع:

تتلخص أهمية الموضوع في أمرين:

الأول: كشف منهج أهل الباطل من خلال ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، حيث إنه من العليم الخبير الذي يعلم ما تنطوي على النفوس والطبائع البشرية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

الثاني: خطورة التضليل الإعلامي في الصد عن الحق وتشويه دعوة أهل الخير والصلاح، وهذا يقتضي معرفة منهج أهل الباطل ومواجهتها بالكم والكيف الذي يبين عوارها، ويسهم في بلوغ الحق للناس.

أهداف البحث:

١ – بيان المنهج القرآني في كشف أساليب أهل الباطل في نصرة باطلهم وتشويه الحق.

٢ – تثبيت أهل الإيمان بمعرفة ما أصاب الأنبياء قبلهم من أذى أعدائهم.

٣ – استنباط الوسائل الناجعة في مواجهة أساليب أهل الباطل في تزيين باطلهم والتصدي لأهل الحق.

أسئلة البحث:

١ – كيف بين القرآن الكريم منهج أهل الباطل في نصرة باطلهم وتشويه الحق.

٢ – ما أثر معرفة أهل الإيمان بما جرى على الأنبياء والصالحين قبلهم من أذى أعدائهم.

٣ – ما الوسائل الناجعة في مواجهة أساليب أهل الباطل في تزيين باطلهم وتشويه الحق.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك باستقراء الآيات التي أخبر الله تعالى فيها عن حال أعداء الرسل، ومن ثم استنتاج الوسائل الناجعة في مواجهة أساليبهم.

الدراسات السابقة:

الكتابات حول القرآن الكريم ثرية جدا، وقد تناولت موضوعاته الفقهية والعقدية والتربوية والاجتماعية واللغوية وغيرها، وألفت موسوعات في دراسة المواضيع التي تضمنها القرآن الكريم.

ولم أقف على بحث تناول موضوع البحث من جميع جوانبه، إلا أن أقرب الدراسات لهذا الموضوع ما يلي:

١- الاستهزاء، دراسة موضوعية للاستهزاء في القرآن الكريم، مطبوع ضمن موسوعة التفسير الموضوعي – المجلد الثالث، والموسوعة من إصدارات مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٢- الإساءة إلى الأنبياء وأساليب التعامل معها في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، للباحث: إسحاق بن عبد الله سماكي، وإشراف: أ.د عادل بن علي الشدي، من مطبوعات: كرسي المهندس عبد المحسن الدريس، بجامعة الملك سعود، طبعة: الهيئة العالمية للكتاب والسنة.

٣- الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره، لأحمد بن مُحَمَّد القرشي، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.

٤- التربية بالابتلاء دراسة تربوية لآيات الابتلاء في القرآن الكريم، لحسن سليمان معمر، بحث محكم منشور في مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية) المجلد الثالث عشر، العدد الثاني

وتتميز هذا الدراسة بأنها تضمنت جانبين متقابلين، مدح أهل الباطل لأنفسهم كذباً، وذمهم لأهل الحق زوراً وبهتاناً، والذي سماه الله تعالى "زخرف القول"، فالبحث في جانب الأقوال؛ إساءات أهل الباطل لأهل الحق، ودعواهم الصلاح والإصلاح، مع مناقشة هذه الدراسة لباعث تلك الأقوال، ومحاولتها ذكر الآثار والعلاج.

إجراءات البحث:

١- توثيق النصوص حسب المنهج العلمي، فالمنقول بنصه بين علامتي تنصيص، وذكر اسم الكتاب في الهامش مباشرة، والمنقول بمعناه بدونها ويكتب في الهامش: ينظر.

٢- مراعاة القواعد الحديثة في الإملاء وعلامات الترقيم.

٣- كتابة الآيات بالرسم الإملائي العثماني، وذكر اسم السورة ورقمها في المتن.

٤- عزو الأحاديث باختصار لمصادرها، مع ذكر من صحح الحديث إن كان في غير الصحيحين.

تقسيم البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة، وأربعة مطالب وخاتمة.

المقدمة: وفيها أهمية البحث وأهدافه وأسئلته ومنهجه والدراسات السابقة وتقسيماته.

المطلب الأول: منهج أهل الباطل في محاربة الحق وأهله.

المطلب الثاني: منهج أهل الباطل في تزيين باطلهم والدعوة إليه.

المطلب الثالث: بواعث الكذب والافتراء لدى أهل الباطل .

المطلب الرابع: الآثار والعلاج.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع

ولا يسعني إلا أن أشكر جامعة الملك سعود وعمادة البحث العلمي ممثلة في وكالة العمادة للكراسي البحثية على دعمها لهذا البحث ومناشط كرسي الملك عبد الله للحسبة وتطبيقاتها المعاصرة، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.

المطلب الأول: منهج أهل الباطل في محاربة الحق وأهله:

يدرك أعداء الدين أثر الكلمة في إفساد القلوب والصد عن سبيل الله؛ ولذا يبذلون جهودهم في جميع الميادين لمحاربة الحق وأهله، محاولين الحيلولة دون القلوب قبل الأسماع عن سماع الحق وإدراكه.

فمن مسالك أهل الباطل في محاربة أهل الحق رميهم بالبهتان، ووصفهم بكل صفة ذميمة تنفرا للناس من دعوتهم، فوصموهم بالسحر والشعوذة، وطعنوا في مقاصدهم ونياتهم، وآذوهم في أهليهم وأولادهم، وتقولوا عليهم ما لم يقولوه، ورموهم بما لم يكتسبوه، ولم يتركوا محفلا للناس إلا وحذروا منهم ومن دعوتهم، زاعمين حرصهم على مصلحة الناس وسلامتهم، محذرين لهم من مآل استجابتهم لدعوة الأنبياء وأتباعهم بأن عاقبته فساد دنياهم، وتقطع أرحامهم، وبوار أموالهم.

والرمي بالبهتان لا يقتصر على صورة معينة، بل يتفنن أهل الباطل في تصوير الحق بصورة مشينة تنبو عنها الأسماع، ورمي أهل الحق بالظلم والبهتان، حتى ينفر من لا يعرف الحق من سماعه، ويبذل قصارى جهده في توخيه ومباعدة أهله، ومثاله من يضع قطنا في أذنيه، أو يعطى كتابا فيتحاشى القراءة فيه.

وهذه المسالك لأهل الباطل وصفها القرآن أتم وصف، وعالجها أحسن معالجة، وهي أصل لما عداها؛ وذلك ليُعتبر بها، ويُقاس عليها، ويهتدى بهدي القرآن في معالجتها.

ويقوم منهج أهل الباطل في محاربة الحق وأهله على عدة طرق ووسائل، منها:

١/ ادعاء أهل الباطل أن طريق الأنبياء سبب للفساد في الأرض، وأن الأنبياء جاءوا بسبب الآلهة، وشتم الآباء، وتسفيه الأحلام، وسفك الدماء، وتقطيع الأرحام، فيعمى هؤلاء الطغاة عن عظيم جرمهم، ويدعون الإصلاح، ثم ينسبون الفساد لطريق الأنبياء، ففرعون الذي تجبر وطغى في البلاد يدعي الرشد، ويتظاهر بخشيته من إظهار موسى عليه السلام للفساد في الأرض: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وفرعون قد استيقن الحق وجحده ظلماً وعلواً، وكان سفاكا للدماء متهاونا فيها، إلا أنه طلب الإذن من قومه بقتل موسى تمويها لهم على أنهم هم الذين يمنعونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من علمه أن موسى عليه السلام نبي، فـ "كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك"[٢].

ففرعون لا يخفى عليه حال موسى وما يدعو إليه، ومع ذلك رفع عقيرته أمام قومه مدعيا خشيته من إفساد موسى عليه السلام لدينهم ودنياهم.

ويصل الأمر بقوم ثمود أن يتشاءموا بصالح عليه السلام ومن معه من أتباعه: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

فتشاءموا بوجود أهل الصلاح بينهم، وزعموا أنهم زجروا الطير وسيصيبهم به وبمن معه المكاره والمصائب، فرد عليهم صالح عليه السلام رد المؤمن بالله تعالى، وأنه لا يكون شيء إلا بعلمه وأمره، وأنهم لا يعلمون ما يستقبلهم من أمور، فهي من الغيب الذي اختص الله تعالى به[٣].

ومثل هذ تشاؤم أهل القرية بأنبيائهم المرسلين، وتطيرهم بهم، ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

ومثل هذا التشاؤم قد يسمعه أتباع الأنبياء، فيعزى كل بلاء من قحط ومرض إلى وجودهم، وأنهم لم يأتوا بخير، وأن ما حصل من فساد فسببهم.

وقد يبلغ الطاغية من الطغيان مرحلة تنقلب فيها الحقائق، فيرى الحق منكراً والمنكر حقاً، ويرى صواب أفعاله، وربما اعتقد شرعيتها كما هو حال بعض أهل الأديان والملل الباطلة، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى عند الحديث عن بواعث الكذب والافتراء لدى أهل الباطل.

٢/ تعيير أهل الباطل لأهل الإيمان بما وقع منهم أو نسب إليهم، فحالهم كما أخبر النبي ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ»[٤].

فكم قتل فرعون من بني إسرائيل ظلما وعدوانا، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]، فلما جاء موسى عليه السلام بالحق من ربه عاند واستكبر، وشنع عليه بما

حصل منه قبل النبوة حين وكز رجلا فقضى عليه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ١٨-٢٠].

ومعنى قوله ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي "وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله عليّ"، وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى القتل، أو من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد، أو من المخطئين(٥).

٣/ وصف الأنبياء بالكذب والسحر والجنون، كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ونحوه في قصة هود عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وكذا في قصة شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والظن في الآيات السابقة بمعنى اليقين؛ وهو استعمال كثير في اللغة(٦)، ويحتمل أن يكون بمعنى الشك، أي أنهم "كفروا به ظانّينَ لا مُسْتيْقنين"(٧).

وصدق الأنبياء لا يخفى على أقوامهم؛ فهم يعلمون صدقهم حتى قبل نبوتهم؛ ولذا في الحديث الطويل لما سأل هِرَقْلُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِ النَبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟"، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لا، فَقَالَ هِرَقْلُ: "وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ"(٨).

وإذا كان الأنبياء عليهم السلام هم صفوة الناس وأصدقهم؛ فإن رميهم بالكذب والجنون والسحر مناف العقل، ومع ذلك تروج هذه الدعاوى على فئام من الناس.

ومثل الرمي بالكذب الرمي بالسحر والجنون، فهذا شأن أعداء الرسل في كل زمان، كما قال جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

فهذه الأقوال "ما زالت دأبا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون"، فكأنهم تواصوا بذلك ولقَّنَ بعضُهم بعضًا لشدة ما بين أقوالهم من الاتفاق؛ إلا أنهم لم يتواصوا بذلك ولكن "تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم"(٩)، فلتشابههم في الطغيان قال متأخرهم كما قال متقدمهم(١٠).

وبمعنى السحر والجنون قول عاد لهود عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤].

فأصروا على ما هم عليه من الشرك بعبادة آلهتهم، وكفروا بما جاءهم به من الآيات، وقالوا بأنه إنما "حملك على ذمّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنونٌ"(١١).

وقد أخبرنا الله تعالى عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، والأظهر في معناها: "إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك"(١٢).

وبمثل قولهم أجاب أصحاب الأيكة شعيباً عليه السلام، وذلك لتشابه ما في قلوبهم من الكفر والطغيان، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)﴾ [الشعراء: ١٨٦].

فوصفوه بأنه من المسحورين، وزادوا على ذلك وصفه بالكذب، والظن هنا بمعنى اليقين، بل أمعنوا بوصفه بأشد الكذب، كما قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

ولشناعة ما وصفوه به من تجاوز الحد في الكذب وبأنه كثير الكذب والشر جاءهم الوعيد بقوله سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]، أي "سَيَعْلَمُونَ غَداً عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح عليه السلام أم من كذبه؟"(١٣)، وقد حل بهم عذاب الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب الآخرة أشد وأنكى، "فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع"(١٤).

٤/ الغمز واللمز لأهل الحق، وإيراد اللفظ الحسن على سبيل السخرية والاستهزاء، كما في قول أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وهذا القول منهم على سبيل التهكم، وقولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ تهكم آخر، أي إنك أنت الحليم الرشيد بزعمك، أو يريدون السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده، كما يقال للديغ سليم، وللفلاة مفازة...، وقيل: هو على الصحة، أي إنك يا شعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢](١٥).

فقوم صالح عليه السلام قالوا لنبيهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

فمعنى قولهم: أنهم كانوا يرجون سؤدده في قومه، وأن يحل محل الكبار، ثم قرروه على جهة التوبيخ كيف ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم من قبل، وأنهم في شك وتكذيب لهذا، ويتجه معنى آخر في الآية من جهة المعنى؛ فيكون معنى ﴿مَرْجُوًّا﴾ أي يسهل رد أمرك، حيث لا يظن استفحاله فيرجى اطراحه وغلبته، فيكون ذلك على جهة الاحتقار، ونحوه قول أبي سفيان: "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة"[١٦]، ويكون قولهم بعدها على جهة التوعد والاستشناع لما دعاهم إليه[١٧].

وقد يقع الاستهزاء على التشريعات الإلهية التي أنزلها الله تعالى على نبيه، وهذا لم يسلم منه نبي من الأنبياء، والله يقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

والكفار في كل أحوالهم معرضون عن الحق، مبغضون لأهله، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، "فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالَّتهم".

وهذا يشمل الكفار من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، ويحدد المنهج الصحيح في التعامل معهم، وأن الحكم ثابت وإن غيروا ثيابهم، وألانوا في الخطاب أقوالهم، وأظهروا النصح وحسن النوايا في عباراتهم؛ فإن اتخاذهم بطانة لا يكف شرهم، بل يزيدهم بطراً وأشراً، ويزيد قلوبهم ضغينة وغلاً، فلا يودون للمؤمنين غير العنت والمشقة، وما تخفي صدورهم من البغضاء أكثر مما بدا منهم وظهر.

٥/ محاولة منع الدعوة من الانتشار بشتى الوسائل، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وغالب أحوالهم الاستهزاء والتهديد والوعيد، وقد يناورون لتحقيق مرادهم، وقد يحاولون الاستمالة لمنع الدعوة، كما في الآيات السابقة على أحد الوجوه في معناها، وكما في محاولة استمالة المشركين للنبي ﷺ حين عرضوا عليه ما عرضوه من أن يؤمروه ويزوجوه ويعطوه ما أراد على أن يترك دعوته التي بعثه الله تعالى بها.

والتدافع سنة من سنن الله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالمشركون قد يحجزهم مكانة النبي في قومه، كما في قصة شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

والنبي ﷺ كان في كنف عمه أبي طالب يحوطه ويمنعه، وكان من أسباب إسلام حمزة ﷺ غضبه للنبي ﷺ حين أساء إليه أبو جهل.

وهذا وغيره من سنة التدافع، ومن منع الله تعالى لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام من أعدائهم، والمؤمن يعلم أنه لو اجتمع من بأقطارها فلن يضروا العبد بشيء لم يأذن الله به.

والاستهزاء قد يكون بأمر ليس للنبي فيه يد، فاستهزاء قوم شعيب بضعفه عليه السلام أنه كان ضريراً، كما استهزأ فرعون بعيي موسى في الكلام، ووصفه بالمهانة والذلة، فأخبر الله تعالى أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، يريد بذلك أنه لا مال له ولا ملك، مع ما في لسانه من آفة لا يكاد يبين لأجلها، فقد كان في لسانه لثغة، والأنبياء أجمعون مُبَيِّنونَ بُلَغَاءُ[١٨].

٦/ التجني والتحريض والأذى لأهل الحق.

حيث يطال الأذى أتباع الأنبياء، فينالهم من التجني والتحريض والأذى ما ينال الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

والأذى من عموم الكفار للمؤمنين سنة ماضية، كما قال جل شأنه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وفي سورة المطففين قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٣٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

٧/ مخادعة المؤمنين.

قد يكون الأذى ممن يظهر الإسلام ويبطن الكفر أشد؛ وهذا حال المنافقين، وذلك لما في مواقفهم من المكر والخداع والتلون وعدم المواجهة، ومآل خداعهم راجع إليهم، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

فالمنافقون إذا خرجوا في المؤمنين لم يزيدوهم إلا خبالاً، يرضون المؤمنين بأفواههم وتأبى قلوبهم، وإذا خلا بعضهم إلى بعض سخروا منهم واستهزؤوا بهم، يفرحون لمصابهم، ويودون عنتهم، ويعضون أصابعهم حنقاً وغيظا عليهم، ويظهر بين الفينة والأخرى على فلتات ألسنتهم ولحن قولهم ما يكشف مستور نفوسهم وخبايا صدورهم، وهذه سنة ماضية، فـ "ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفلتات لسانه"[١٩].

ومصداق ذلك ما أخبر الله تعالى عنه من ظهور البغضاء من أفواههم، ومعرفة النبي ﷺ وصحابته ﷺ لهم بلحن أقوالهم.

قال سبحانه وتعالى في وصف حالهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩]، ثم قال بعدها بآيات: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤].

وقد أجمع المفسرون على نزول هذه الآيات في المنافقين، والمنافق هو الذي "يخالِفُ قولُه فعلَه، وسرُّه علانِيَتَه ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه"(٢٠).

٨/ جعل أنفسهم ميزانا للحق.

ميزان أهل الباطل أعوج الكفة، معدوم العدالة، حيث يصفون أهل الحق بالسفه، ويسخرون منهم، ويجعلون من أنفسهم ميزانا للإيمان والهدى، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وقد بلغ بهم الجهل وانطماس البصيرة أن نسبوا العزة لأنفسهم دون المؤمنين، فكان أبلغ الرد عليهم آيات تتلى إلى يوم الدين، فعاشوا أذلة مبغضين منبوذين، مع ما ينتظرهم من الخزي والهوان والعذاب الأليم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وقد طال أذاهم نبي الهدى عليه الصلاة والسلام، فوصفوه بأبشع الصفات وأسوأ الخلال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٢].

ولاكوا بألسنتهم في عرضه ﷺ كما في حادثة الإفك، حتى قام خطيبا فقال: "مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي"(٢١).

وما بلغ المنافقون هذه الحال إلا بسبب استبدالهم الكفر بالإيمان، فطبع على قلوبهم، وفسدت تصوراتهم، وخبثت قلوبهم، فخسروا دنياهم وآخرتهم.

وانعدام الإيمان في القلب يحمل صاحبه على معاداة الحق وأهله، وبغض المتمسكين بالشريعة والدين، فاستهزاؤهم بأهل الصلاح دافعه بغض الشريعة؛ ولذا جعل الله تعالى استهزاء المنافقين بالصحابة استهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ

وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

والخلاصة: أن أهل الباطل لا يزالون يرمون أهل الحق بالسفه، ويكذبون عليهم ويفترون، ويقولونهم ما لم يقولوه، ويرمونهم بالتشدد والتعنت وإرادة الدنيا والتكسب بالدين.

وزاد الأمر شدة ظهور وسائل التواصل وغيرها؛ فصار بإمكانهم الكتابة من وراء الستار، وأضحى بمقدور المستشرقين وغيرهم من أهل الضلال والانحراف أن يكتبوا بأسماء ظاهرها الإسلام أو التمسك بالسنة؛ فيدسون السم في العسل، ويشككون في الأمور القطعية، ويثيرون الشبه على الناس.

وربما انتحلوا كتبا ونشروها، أو معرفات وهمية على شبكة المعلومات، أو أنشؤوا معرفات بأسماء العلماء والدعاة والمصلحين لينفذوا من خلالها إلى ما يريدون.

ولئن تنوعت الوسائل فالغاية واحدة، فكأنهم تواصوا فيما بينهم على محاربة الحق ونصرة الباطل، يحملهم على ذلك طغيانهم وفساد قلوبهم، وموضع بحث هذا عند دراسة بواعث الكذب والافتراء لدى أهل الباطل.

المطلب الثاني: منهج أهل الباطل في تزيين باطلهم والدعوة إليه:

يتباين أهل الباطل في اعتقادهم صواب ما هم عليهم، فقد يضل بعضهم وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وقد يجحد أحدهم الحق وقد استيقنته نفسه ظلماً وعلواً.

ويجمع هؤلاء وصف الضلالة، ومعاداة الحق وأهله، وادعاء الخير والصلاح للبشرية.

وفي ذكر الله تعالى في كتابه جملة من أقوالهم وأحوالهم، ومن تدبر ذلك وفهمه عرف حقيقة عدوه، واعتبر ما يراه في يومه من أعداء الدين بما كان عليه أسلافهم، وأمكنه التعامل وفق ما يقتضيه الشرع.

ويقوم منهج أهل الباطل في تزيين باطلهم والدعوة إليه على عدة وسائل منها:

١/ التزيين والإغواء والتبرء.

وأول هؤلاء الأعداء إبليس أعاذنا الله تعالى منه، وهو الذي أغوى آدم عليه السلام وزوجه بالأكل من الشجرة في الجنة، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢].

فأقسم لآدم عليه السلام أنه من الناصحين، فغوى آدم بتصديقه وطاعته، وأهبط من الجنة هو وزوجه، وأعلن إبليس العداوة له ولذريته إلى يوم الدين: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

[الأعراف: ١٧].

وقد أغوى الشيطان كفار قريش في معركة بدر، فلما دارت الدائرة عليهم نكص على عقبيه وتبرأ منهم وقال إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذ زَيَّن لهم الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ودعوى الشيطان الخوف من الله تعالى لا يغير من الواقع شيئا، فلو خافه لاتقاه، لكنه لا يفتأ يكرر هذه الدعوى بمقاله دون فعاله.

ومثل هذه العبارات ربما تسمع ممن أمعن في الطغيان والظلم والعدوان، فيظهر المسكنة حين يكون عاجزا، ويتباكى مظهرا خوفه من الله تعالى وخشيته له.

والذي يعنينا في هذا الموضع هي هذه الدعوى، فإن الله تعالى أخبرنا عن ادعاء إبليس لها في أكثر من موضع، ومن كان إبليس قائده وإمامه فيسير على منواله.

ولا شك أن حبائل الشيطان لا تنتهي، وخطواته لا يشعر بها كثير من الناس، فأغوى عباداً وعلماء، وصالحين وطلحاء، وقد ضرب الله تعالى لنا في كتابه من ذلك أمثالاً، وقص علينا في ذلك أخباراً، فأخبرنا عن رجل من بني إسرائيل وهبه الله علما فانسلخ منه، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، وسبب ذلك خلوده للأرض واتباعه الهوى، ولو أناب إلى الله وانطرح بين يدي خالقه فإن الله لا يرد تائباً.

وضرب لنا سبحانه وتعالى مثلا آخر بمن أمره الشيطان بالكفر، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

فهذه الآية ضربت مثالاً، وقيل بنزولها في إنسان بعينه، وخلاصة الروايات أنه راهب عَبَدَ اللهَ تعالى ستين سنة، وآتاه الله علماً، وجعل لرقيته أثراً، فأغواه الشيطان بالوقوع على امرأة فحملت منه، فقتلها ودفنها، فلقيه الشيطان فوعده إن سجد له أن ينجيه مما وقع فيه، فأطاعه وسجد له، وانتهى أمره إلى الملك فقتله، وتبرأ منه الشيطان فلم ينفعه، وكان عاقبتهما النار والعياذ بالله(٢٢).

ولم يبلغ الراهب هذا الدرك إلا باتباعه خطوات الشيطان، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، ولو خاف الله لما عانده وكفر به، فأفعاله دالة على كذبه وافترائه، ومجرد القول لا ينفع إلا مع الاعتقاد والعمل بمقتضاه.

وماذا ينفع الاستجداء واستجرار البكاء وإظهار المسكنة ممن عرف جرمه وطغيانه؛ فإن الله تعالى ذكر جزاء المفسدين في الأرض، واستثنى منهم من تاب قبل القدرة عليه.

وليس المقصود أن يقنط أحد من رحمة الله تعالى، أو أن يبين الحكم الشرعي في مثل هذا القضايا، وإنما يعنينا ما يؤول إليه حال بعض أهل الباطل عند ظهور عجزهم والتمكن منهم من إظهار الخوف من الله تعالى وإظهار المسكنة والضعف.

وأعظم ما تكون الحسرة حين يتبرأ الشيطان من أتباعه بعد انقضاء الأمر ودخول النار، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فلئن كان هذا قوله في النار؛ فإنه في الدنيا أشد المكذبين لموعود الله، بل كان يعدهم ويمنيهم، وإنما انكشف الغطاء وظهرت الحقائق في وقت لا يمكن فيه التدارك والرجوع.

واعتراف إبليس بالحق في هذه الحال لا ينفعه شيئاً، ولا يزيد أتباعه إلا حسرة وندما، وإنما يقوله تبكيتاً لهم، وإلقاء للائمة عليهم، ولات ساعة مندم.

ولا يزال الشيطان يلقي حبائله، وينصب شباكه، ويُجلب بخيله ورجله، فمن اتبع خطواته آل أمره إلى البوار، وتفطن حين لا ينفع الندم، وإذا ذهبت السكرة أتت الحسرة.

٢/ ادعاء إرادة الخير والصلاح، وزعم محاربة الفساد.

ففرعون الذي أسرف في الظلم والطغيان يدعي الرَشَدَ في طريقه وهديه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فأي رشد كان عليه، وأي خير دعا إليه، وإنما قادهم إلى طريق النار وبئس المصير: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ – ٩٨].

وأهل النفاق إذا نهوا عن الإفساد زعموا الصلاح والإصلاح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢].

والمنافق لا يوثق بقوله ولا بما يظهره، فإنهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

٣/ مخادعة الناس بالأيمان الكاذبة.

حيث يحلف أهل الباطل بالأيمان المغلظة على إرادة الإحسان والخير مع احتكامهم لغير شرع الله تعالى، فهم كما وصفهم سبحانه، ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

فكيف يَدَّعون الإيمان بالله ورسوله ﷺ ثم يتحاكمون إلى غير الكتاب والسنة، وإذا نزلت بهم المصائب

وساقتهم المقادير واحتاجوا إلى النبي ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا أنهم ما أرادوا بتحاكمهم إلى غيره إلا المداراة والمصالحة، لا اعتقاد صحة ذلك الاحتكام، لكن الله تعالى يعلم أنهم كاذبون في دعواهم، ويعلم ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، وسيجازيهم عليه، والآية عامة في كل من عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل(٢٣).

والمنافق لا يبالي بالأيمان الكاذبة؛ فقد اتخذوا أيمانهم جنة يتقون بها العقوبة، ويتقون بها لوم اللائمين(٢٤)، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦]، ولو عظموا الله تعالى لاختاروا الإيمان، ولما تجرؤوا على الكذب فضلا عن الأيمان الكاذبة.

وغايتهم إرضاء الناس لتحقيق مصالحهم الدنيوية وإن أسخطوا الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

ويكفي لمعرفة حجم كذبهم ما أخبر الله تعالى به من كذبهم عليه يوم القيامة، وحلفهم على ذلك، والله لا تخفى عليه خافية: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ . اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فـ "كما أن المنافقين في الدنيا يموهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعا، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئا فشيئا، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر"(٢٥).

٤/ إظهار أنفسهم مع المؤمنين.

فيظهرون أنفسهم مع المؤمنين، ولا سيما إذا رأوهم منتصرين، ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فالمنافقون ليسوا من المؤمنين وإن ادعوا أنهم منهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

ومن جملة دعاوى المنافقين الكاذبة، دعواهم أنهم على الإيمان والهدى، مع استهزائهم ووصفهم لأهل الإيمان بالسفة، كما وصفهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا

هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩]، ثم قال بعدها بآيات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣-١٤].

فالمنافق لا يقر على نفسه بالنفاق؛ وقد روي عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال في النفاق: "ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق"(٢٦).

وهذه الحال قد تقع من غير الكفار والمنافقين، فإن حبائل الشيطان في إغواء البشر متعددة، فيفسد على الصالحين أعمالهم بالرياء وإرادة الدنيا، ويفسد على العلماء دينهم بحب الظهور والغلبة على الجهلة، ومجاراة العلماء، ويدخل على الشركاء من باب الحسد، إلى غير ذلك من وسائله وخطواته.

وقد أخبرنا الله تعالى عن قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وكيف زين الشيطان لهم قتل أخيهم أو إقصائه حتى يخلوا لهم الحال مع أبيهم، ويكونوا من بعده قوماً صالحين.

فكان بدء أمرهم إظهار النصح والمحبة: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٢]، ثم تعمدوا الكذب ليخفوا جرمهم الذي فعلوه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وسلكوا من الوسائل ما يتعجب له المرء، فجاؤوا لأبيهم عشاء يبكون، وجاؤوا على قميص يوسف بدم كذب.

وإذا كان هذا حالهم وهم أبناء يعقوب عليه السلام، فكيف بحال من لم يعرف الحق ولم يجالس أهله، وإنما يعرف حالهم من أنار الله تعالى بصيرته، وليس النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

والمقصود: بيان مسلك أهل الباطل في تزيين باطلهم بزخرف القول، والتصنع في الظاهر بما يخالف الباطن؛ لا سيما حال الضعف والمسكنة والحاجة، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

ومن فهم هذا لم ينجر وراء عاطفته دون إحكام عقله، ولم يغتر بظاهر الأمر دون الرجوع إلى منهج الشرع في التعامل مع الكفار والمنافقين وأهل الضلال والانحراف.

المطلب الثالث: بواعث الكذب والافتراء لدى أهل الباطل:

خلق الله تعالى عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وحرفتهم عن الفطرة التي فطرهم الله عليها؛ فكان صلاحهم بإرجاعهم لفطرة التوحيد، ودعوتهم لدين الله سبحانه، ولو خلي بين الناس وبين الحق لدخل كثير منهم في دين الله أفواجا.

وقد يتمسك أهل الباطل بباطلهم، ويحملهم الجهل والهوى على محاربة الحق وأهله، وهي سنة ماضية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وسنة المدافعة باقية كذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

والمقصود معرفة بواعث تلك المعاداة، وأسباب ما يقع في منهج الطغاة من المشابهة والمشاكلة، مع تباعد أزمانهم، وتنوع ثقافاتهم، وانقطاع الصلة بينهم.

ولا يخفى ما بين الأسباب من تداخل، وترتب بعضها على بعض، لكن لدقة مأخذ بعضها يفرد بالذكر، ويورد ما يوضحه باختصار.

١/ الطغيان.

فمن بواعث المعاداة والبهتان للأنبياء عليهم السلام ما ذكره الله تعالى في ختام سورة الذاريات، وهو طغيانهم، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

فقد "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبيٌّ قوماً ﴿إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ثم قال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾، ثم أضرب عن تواصيهم بذلك إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجتمعوا في زمن حتى يتواصوا، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي الموجب الذي جمعهم على اتفاقهم جميعا على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون هو اتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر"[٢٧].

وعلى هذا فتماثل مقالتهم لتماثل السبب الداعي لها؛ "إذ جميعهم قوم طاغون، وأن طغيانهم وكبرياءهم يصدهم عن اتباع رسول يحسبون أنفسهم أعظم منه، وإذ لا يجدون وصمة يصمونه بها اختلقوا لتنقيصه عللا لا تدخل تحت الضبط، وهي ادعاء أنه مجنون أو أنه ساحر، فاستووا في ذلك بِعَلّةِ اسْتوائِهِم في أَسبابِهِ وَمعاذيرِهِ"[٢٨].

وللأمم أقوال غير ذلك وأحوال أخرى، وإنما اقتصر على ذكر السحر والجنون؛ لأنه غاية ما يكون من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر[٢٩].

والمقصود أن المشركين لما تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان تشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع[٣٠].

فالطاغية مطموس البصر والبصيرة، قد ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، كما قال سبحانه عن المشركين: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

ومن هذه حاله لا ينتفع بحواسه الظاهرة؛ ولا يسمع سماعاً ينتفع به ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والختم على القلب من العقوبات المعجلة في الدنيا؛ وهو جزاء الإعراض عن الحق بعد معرفته، كما قال جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وكلما كان الذنب أعظم كانت العقوبة أشد، ولذا توعد الله تعالى من جمع بين الضلال والإضلال، وأسرف في الظلم والطغيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩].

فهؤلاء الكفار جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدِّهم الناس عن سبيل الله، وهذا حال أئمة الكفر ودعاة الضلال، وضلالهم من أعظم الضلال، فمن ضل بنفسه وأضل غيره فقد باء بإثمه وإثم غيره، وكفرهم من الظلم إلا أنهم زادوا عليه ظلما آخر، ويراد به في الآية أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم؛ لأنهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرانهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا[٣١].

٢/ العداوة والبغضاء لأهل الحق.

ومن هذا الباب معاداة اليهود والمشركين للنبي ﷺ وأذيتهم له؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وشدة العداوة لما كانوا عليه من الحسد وبغض الإسلام، كحسد اليهود ألا يكون الرسول منهم، وحسد المشركين لمن سبقهم بالهداية[٣٢]، مع ما كانوا عليه من التقليد والبعد عن التحقيق، والتمسك بالباطل واتباع الهوى، ومعاندة الله في أمره ونهيه[٣٣].

ومن اتصف بصفات اليهود من النصارى كانت عداوته بقدر ذلك، وقد تزيد عداوته عليهم، وما ذاقه المسلمون من النصارى في حملاتهم الصليبية وغيرها لا يخفى على ذي لب، فإن الضلال عن علم يورث عمى البصر والبصيرة، والله يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وإنما يكون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا إذا كانوا أهل زهد وعبادة، وليس فيهم تكبر على الخلق ولا عن الحق، كما هو حال عدد من النصارى الذي آمنوا في زمن النبي ﷺ، ويكون مثلهم من اتصف بمثل صفاتهم، ودليل صدق مودتهم عدم الاستكبار عند سماع الحق واتباعه والانقياد له.

وقد لحق بكفرة النصارى ما لحق باليهود من اللعن على لسان أنبيائهم، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسيبقى العداء مع المسلمين إلى أبد الدهر ما لم يتبعوا ملتهم والعياذ بالله تعالى.

وإنما حسن التنبيه في هذا الموضع على مماثلة بعض النصارى لليهود في عداوتهم؛ لأن الاتصاف بالطغيان موجب لمثل هذه الصفات، ومانع من قبول الحق والانقياد له، وإنما يقع التباين عند تباين ما في القلوب؛ فليس المتواضع كالمستكبر، وليس الزاهد العابد كالعاصي المعاند.

٣/ العمه وعمى البصائر.

من بواعث الكذب والافتراء ما يصيب الطغاة من العمه، وهو عقوبة على الطغيان؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وَالعَمَهُ هو "التَّحَيُّر والتَّرَدُّد"، وقيل هو: التَّرَدُّدُ فِي الضَّلَالَةِ، وَالتَّحَيُّرُ فِي مُنازعةٍ أَو طَرِيقٍ؛ وذلك بأن لا يَعرِفُ الحُجَّة، ويَتردَّد فلا يَدرِي أَين يَتوجَّه، يقال: رَجُلٌ عَمِهٌ وعامِهٌ أَي متردد لا يهتدي لطريقه ومذهبه(٣٤).

والعمه يكون في الرأي، قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: "العَمَهُ فِي الْبَصِيرَةِ كَالْعَمَى فِي البصَر"(٣٥).

وانقلاب الحقائق والموازين نوع من العمه الذي حل بالمشركين حين أعرضوا عن الحق بعدما تبين لهم، فـ "طرق العلم والخير، قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق"(٣٦).

فكان من أشد العقوبة أن طبع الله "على قلوبهم وختم عليها، فأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْدا ولا يهتدون سبيلا"(٣٧).

ومن كانت هذه حاله انقلبت عنده المفاهيم، فالصواب ما هو عليه، والخطأ ما خالفه، فهو معيار الخطأ والصواب، فهو أخسر الناس أعمالاً ويظن أنه يحسن صنعا، قد تقلّب قلبه وبصره فعمي عن الهدى، وأصابه من داء العظمة ما جعله يتباهى بأفعال ينبو عن مثلها العقلاء.

وهذه حال أهل الباطل الذين تبين لهم الهدى فأعرضوا عنه تعصبا لموروثهم، وحال بعض الطغاة الذين استخفوا قومهم فأطاعوهم؛ فإن إمهال الله تعالى لهم في طغيانهم أصابهم بالعمه، فاستمرأوا ما هم عليه من الطغيان، وانطمست بصائرهم وانتكست فطرهم وعميت أبصارهم وقلوبهم حتى التبس عليهم الحق بالباطل، وانقلبت المفاهيم، وصاروا يعتقدون أنهم أهل لما هم فيه من نعيم الدنيا، وعلى صواب فيما

يفعلون ويذرون، فلا يخجلون ولا يتحرجون من كل فعل مشين، بل يعتقدونه صوابا، فقد زين لهم سوء عملهم، وغرهم تصفيق أتباعهم وحاشيتهم.

٤/ الإعراض عن الحق.

وهذه سنة ماضية في حق الأمم والأفراد؛ فالهداية إذا طلبها الإنسان وسلك سبيلها وفق إليها، وإن أعرض وركن إلى هواه هوى إلى الهاوية، كما قال جل وعلا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ -١٧٧].

فاتباع الهوى واتباع ما أسخط الله سبب لانعدام التوفيق للخير: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾،

ولو طلبوا سبيل الهداية لهداهم الله تعالى ووفقهم وأعانهم، كما قال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٥/ التقليد وتعظيم ما عليه الآباء.

من بواعث معاداة الكفار للحق تعظيمهم لدين آبائهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وهذه حال المكذبين لأنبيائهم في الأمم السابقة، فيعظم سادتهم أمر دين الآباء، ويحطون من قدر من رغب عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقد جاء في الصحيحين من حديث المسَيّبِ ﷺ قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهلٍ وعبد الله بن أبي أُميَّة بن المُغيرة، فقال رسول الله ﷺ «يَا عَمّ، قُلْ: لا إِلهَ إِلا اللهُ، كلمةً أَشهدُ لكَ بهَا عند اللهِ»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب: أَترغبُ عن مِلَّةِ عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدا له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله"(٣٨).

والموروث والتقليد قد يعمي البصائر؛ كما قيل لعمرو بن العاص ﷺ: "ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك؟! قال: "إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّم وسنٌّ، توازي حلومُهم الجبال، ما سلكوا فجا

فتبعناهم إلا وجدناه سهلا، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا؛ نظرنا في أمر النبي ﷺ فإذا الأمر بيّن؛ فوقع في قلبي الإسلام"(٣٩).

وفي رواية: قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضي الله عنهما: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين! فقال له عمرو: وما أَعْجَبَكَ يا عمرُ من رجلٍ قلبُه بيد غيرِه لا يَستَيقِنُ التخلُّصَ منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده، فقال عمر: صدقت"(٤٠).

٦/ الحقد والحسد.

من أسباب نشوء المعاداة والبهتان ما يكون في القلب من الحسد والحقد، كما هو حال أهل الكتاب، قال جل في علاه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ومهما أبدى النصارى من الود والتسامح والتعايش فقد أخبرنا عنهم ما لا تخفى عليه خافية، ومن خلقهم أدرى بمكنون نفوسهم من بعضهم لبعض، كما قال جل في علاه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فأقوالهم الصادرة عنهم تنم عن حسد وحقد دفين في نفوسهم، والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

وهذا شأن الكفار جميعاً؛ فإن غايتهم أن يكفر الناس جميعاً، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

والحسد نشأ مع نشوء البشرية، وهو أول ذنب عصي الله تعالى به، فهو الذي منع إبليس من السجود، وحمل قابيل على قتل أخيه، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والحسد والحقد يملأن القلب غيظا يتمنى معه الحاسد زوال النعمة عن المحسود، فلا يقر له قرار ولا يهنأ له نوم إلا بإلحاق الضرر بالمحسود، فانشغاله بغيره أكثر من انشغاله بنفسه، وحرصه على ضرر غيره أكبر من حرصه على نفع نفسه، وهذا حال أهل الكتاب مع المسلمين، كما قال سبحانه: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٧/ اتباع الهوى.

من بواعث المعاداة والبهتان اتباع الهوى، فالهوى يحمل صاحبه على جحد الحق بعد معرفته، ويدفعه لإتيان الفواحش وركوب الباطل؛ ولذا حذر الله من اتباع أصحاب الأهواء، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٧-٨١].

ومن اتبع هواه لم ينفعه علمه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

وقد يجتمع مع الهوى داء الكبر والحسد، وحب الدنيا والمال، والعصبية للآباء والأجداد، وانطماس القلب والبصائر، والظلم والطغيان، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

المطلب الرابع: الآثار والعلاج:

امتن الله تعالى على أمة الإسلام بحفظ دينها، ومن حفظ الدين حفظ مصادر التشريع، فتكفل الله بحفظ كتابه، وهيأ الأسباب لحفظ سنة نبيه ﷺ، وعصم الأمة من الاجتماع على خطأ، وبعث على رأس كل مائة عام من يجدد للأمة أمر دينها، ولا تزال طائفة من الأمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك[٤١].

وقد بليت الأمة بتكالب الأعداء من خارجها وداخلها، وطالتهم ألسنة المخالفين وأقلامهم، إلا أن الحق لا يقف في وجهه شيء، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وإذا جاء الحق فلا مكان للباطل معه ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وأهل الحق أولى بالبذل وتحمل الأذى من أصحاب الباطل، لما يرجونه من الله والدار الآخرة، ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

أولاً: الآثار، فمن الآثار التي تنتج عن طرق أهل الباطل في محاربة الحق ما يلي:

١/ تشويه صورة الحق وأهله.

فقد نال المتمسكين بالسنة من الأذى ما نال نبيهم ﷺ وصحابته الكرام، فرماهم مخالفوهم بأبشع الأوصاف تنفيرا من الحق الذي هم عليه، كوصف المسلمين بالأصولية والإرهاب، ورمي المثبتين للصفات كما أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ بالمجسمة والمشبهة والحشوية، وكوصف دعاة التوحيد بالوهابية، إلى غير ذلك من الأوصاف المستحدثة، ففي كل زمان يستحدث أهل الباطل من الألقاب ما يصدون به الناس عن دعوة الإسلام والتوحيد والسنة، ويصفون دعاة الحق بما ليس فيهم، ويقولونهم ما لم يقولوه، ويحملون أقوالهم ما لا تحتمله، وهذا من أعظم الظلم والعدوان، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن أنكى أسلحة أعداء الدين صناعة صورة نمطية ضد من يريدون تشويه صورته، فلا يزالون يكررونها حتى يرتبط في أذهان الناس وصف الإسلام بما ليس فيه، ووصف المصلحين بما هم براء منه، وينقلب الحال فيكون الأصل هو التهمة لا البراءة.

٢/ ومن آثار هذه الحرب الإعلامية إعراض الناس عن سماع الحق؛ ولذا لما وصف كفار قريش النبي ﷺ بالسحر والتفريق بين المرء وأخيه تأثر بذلك من لم يعرف الحال، ووضع القطن في أذنيه خشية أن يسمع شيئاً، إلا أن إرادة الله غالبه، فسمعه من أراد الله هدايته.

ومن ذلك قصة الطفيل بن عمرو الدوسي؛ فإن "قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وفرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر؛ يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه، فلا تكلمه، ولا تسمع منه، قال الطفيل: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا، ولا أكلمه، فغدوت إلى المسجد وقد حشوت أذني كرسفا – يعني قطنا – فَرَقًا من أن يبلغني شيء من قوله، حتى كان يُقال لي ذو القطنتين، قال فغدوت يوماً إلى المسجدِ فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة، فقمت قريبا منه، فأبى اللهُ إلا أن يسمعني بعضَ قولِه، فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلتُ في نفسي: وَاثَكْلَ أُمي؛ والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته... "[٤٢]. إلخ.

٣/ أذية أهل الحق في أنفسهم وأعراضهم، واستعداء الغوغاء والسفلة عليهم، وتحريضهم على أذيتهم، وربما اشتدت الغربة عليهم، وسيعود الإسلام غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء.

وقد أنزل الله تعالى على نبيه من القصص ما يثبت به فؤاده، فقال له سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

فالحزن يعتري البشر، وقد بلغ الهم بالنبي ﷺ يوم العقبة أن سار مسافة لم يشعر فيها بنفسه من شدة ما أصابه، ولم يستفق إلا بقرن الثعالب، كما في حديث عائشة ﵂ "أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيلَ بنِ عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب..." الحديث(٤٣).

وليس الغرض هنا تحقيق الموضع الذي سار إليه؛ وإنما المقصود بيان ما أصابه من الحزن؛ ومشابهة شدته لما وقع له يوم أحد؛ ولشدة حزنه ﷺ لم يستفق إلا بقرن الثعالب، فقطع طريقا طويلا وعراً دون أن يشعر بشيء، ولم يتنبه لنفسه إلا وقد قطع تلك المسافة الطويلة.

ولم يكن حزنه لنفسه، وإنما للدعوة التي يدعو إليها، فقد كذبته قريش، وأبت دعوته ثقيف، وكان يعرض نفسه على القبائل فلا يجد مجيباً له، وكان صناديد المشركين يمشون خلفه ويحذرون منه، وإذ بلغ الضيق هذا الحد فليس بعده إلا الفرج، ودخول الناس في دين الله أفواجا بعد سنوات يسيرة.

ثانيا: العلاج، ويتمثل في عدة أمور منها:

١/ معرفة حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما أصابهم؛ فإن ذلك يسلي قلوب أتباعهم، فأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل(٤٤).

وقد قص الله تعالى على نبيه في كتابه ما يثبت به فؤاده، ففي قصص العبرة عبرة وهداية لمن رام الهداية وطلبها.

فأول العلاج يبدأ من صاحب الحق؛ وذلك بمعرفته للطريق الذي يسير عليه، وما يعترض السالك فيه، فأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

فأذية أهل الحق إنما هي لأجل دينهم ودعوتهم، ومن استحضر الغاية هان عليه ما يلقى دونها، فصبره وتحمله لأجل دينه وعقيدته، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فيستحضر ما عند الله تعالى من الثواب الجزيل؛ ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ويتسلح بالصبر، فبذلك أوصى الله تعالى نبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢/ نشر الحق ومجابهة أهل الباطل في باطلهم: بأن يصدع الداعية بدعوته، ويبذل ما يستطيع لخدمة دينه، ولا يثنيه الاستهزاء والسخية عن البلوغ لغايته، كما قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ *وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٩].

٣/ تنفيد شبهات المبطلين، ودحض حججهم، وهذا شأن الأنبياء جميعاً، كما قال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

والمجادلة بالحسنى مأمور بها، بل المجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٤/ بذل الوسع والطاقة، بأن يفعل الداعية الأسباب الموجبة لبلوغ دعوته، فالدعوة لا تؤتي ثمارها إلا حين تقترن بالعمل وبذل الوسع والطاقة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٥/ القدوة، ومطابقة القول العمل، بأن يمتثل الداعية ما يقول، وأن لا يخالف ما يأمر به، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد أثنى الله تعالى على من جمع بين الدعوة والعمل الصالح، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وعاتب المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، وأخبر أنه من أعظم أسباب المقت عنده جل في علاه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

٦/ عدم الركون إلى أهل النفاق والكفر، وعدم الوثوق فيهم مهما أظهروا وتصنعوا، فقول المنافق لا يكفي لمعرفة صدقه، وقد قال سبحانه لنبيه ﷺ بعد معركة تبوك حين جاءوا معتذرين له فأذن له: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فهذه جملة من الآثار وطرق العلاج، وفي كل طريق من طرق العلاج السابقة آيات كثيرة تؤكد المعنى وترسخه، والقرآن يصدق بعضه بعضا، وهو سلوة المؤمن وزاده، ومنه يستمد قوته وحجته وثباته، فأهل القرآن العاملين بما فيه هم أهل الله وخاصته، ومن تدبره حق التدبر هدي إلى صراط مستقيم.

الخاتمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وسلم تسليما كثيراً.. ثم أما بعد:

فقد تبين من خلال هذا البحث ما عليه أعداء الدين من قلب الحقائق، وادعاء الحق لأنفسهم، ورمي أهل الحق بالبهتان، ومنهجهم قائم على مخادعة الناس بالألفاظ والشعارات الكاذبة.

وقد بلغ كذبهم الآفاق، عبر الإذاعات والقنوات، وفي الصحف والمجلات، وفي المحافل والمؤتمرات، إلا أنها لا تغني من الحق شيئاً، وسيكون عاقبة أمرهم خسراً.

وقد تبتلى الأمة من داخلها بالمنافقين والزنادقة، وبأصحاب البدع المحدثة، وعباد القبور والأضرحة، وهؤلاء ليس لهم طاقة برد نصوص الكتاب والسنة، وإنما محاولة إفراغها عن محتواها، وتشويه صورة المتمسكين بها.

ولو وعى المسلمون هذه الحقيقة لم يغتروا بدعاوى اليهود والنصارى وإن أظهروا أحسن الأقوال، وأقسموا الأيمان تلو الأيمان، وادعوا أنهم للإسلام منصفون، أو لأهله ناصرون، أو عن المقدسات مدافعون، فلن ترضى اليهود ولا النصارى عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم، وغايتهم رد المسلمين عن دينهم كفاراً حسدا من عند أنفسهم.

وكذا حال الزنادقة الباطنية، فلم يحرروا ولن يحرروا الأقصى كما يزعمون، ولن ينصروا الإسلام بشيء وهم من مكن لأعدائه في بلاد المسلمين، وأعملوا سيوفهم في رقاب المستضعفين، وأحرقوا المساجد على المصلين، ثم خرجوا يتباكون على دمائهم وجراحاتهم.

ومثله دعاة التسامح والتيسير، وإن استدلوا ببعض نصوص الكتاب والسنة، فإنهم كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فيأخذون من النصوص ما يوافق أهواءهم ومصالحهم، ويحاولون الاستدلال بها على باطلهم.

وأهل الأهواء قد يتقمصون غير لباسهم، ويتسمون بغير اسمهم، كانتساب بعضهم لمذهب أهل السنة والجماعة، مع مخالفتهم للسنة، وتعظيمهم لكتب اليونان، ثم يرمون أهل السنة والجماعة المتمسكين بهدي سلف الأمة بما هم منه براء.

وفي الفرق من ينتسب لآل البيت، وإنما دينهم مأخوذ عن زنادقة ومجاهيل، وهم أبعد الناس عن صحيح المنقول وصريح المعقول.

والمؤمن يجب أن يكون حصيفا ذا نظر ثاقب لواقعه، عاقلا يزن الأمور بميزانها، ويقيسها بأمثالها، فلا تلتبس عليه الأمور، ولا تشتبه عليه الأحوال، ولا يعمى عن الحقائق.

ومن فهم دلالات تلك الآيات كان أبصر الناس بحقيقة الناس، ولم يمنعه بغضه لأهل الباطل من الإنصاف والعدل، ولم يمنعه عدله من الحيطة وبعد النظر، فالمؤمن ليس بِالْخِبِّ ولا الْخِبُّ يخدعه.

ولا زال مثل هذا البحث بحاجة إلى توسع في بعض جوانبه، واستخراج الأحاديث الواردة في موضوعه، وكذلك التوسع في بعض مباحثه، كاستقراء الآيات والأحاديث الواردة في المنافقين، ودراستها وتحليلها، واستنباط المنهج الشرعي في التعامل معهم، وجمع الآيات الواردة في تطير الكفار بالرسل ودراستها دراسة عقدية.

وكذلك الدراسة العقدية النقدية للقوانين المعاصرة، والأنظمة والتشريعات الدولية، في التعامل مع المخالفين، وفي اللغة السياسية.

وهي موضوعات يفتق بعضها بعضا، يحسن دراستها والحكم عليها بميزان الشريعة.

وكتب العلماء ميدان مهم لاستقراء ما كتبوه في منهجية التعامل، وتحرير أقوال المفسرين، وكتب الفقهاء، وفي الكتب العقدية واللغوية والتاريخ.

سائلا الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه، وأن يتجاوز عما فيه من قصور وخلل، وأن يلهمني الصواب في القول والعمل.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم.

هوامش البحث:

(١) تفسير ابن سعدي (٢٦٩).

منهج أهل الباطل في قلب الحقائق دراسة عقدية تحليلية في ضوء القرآن الكريم ـــــــ

(٢٦) أورده البخاري معلقا، كتاب الإيمان – باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٢٧) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤٤٢/٧).

(٢٨) التحرير والتنوير لابن عاشور، تفسير سورة الذاريات، آية رقم: (٥٢).

(٢٩) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، تفسير سورة الذاريات، آية رقم: (٥٢).

(٣٠) تفسير السعدي (٨١٢).

(٣١) ينظر: تفسير ابن سعدي (٢١٥).

(٣٢) ينظر: التحرير والتنوير (٦/٧).

(٣٣) ينظر: تفسير البيضاوي (١٤٠/٢)، وينظرك تفسير الطبري (٥٠٦/١٠).

(٣٤) ينظر: لسان العرب: ٥١٩/١٣).

(٣٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠٤/٣).

(٣٦) تفسير ابن سعدي (ص ٤١).

(٣٧) تفسير الطبري، عند تفسير سورة البقرة، آية رقم: (١٥)، وبنحوه في تفسير الأنعام، آية رقم: (١١٠).

(٣٨) صحيح ا لبخاري (١٣٦٠)، صحيح مسلم (٢٤).

(٣٩) نسب قريش للزبير بن بكار (ص ٤١٠)، تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢٨/٤٦).

(٤٠) القضاء والقدر للبيهقي، رقم (٤٩٩)، تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢٨/٤٦).

(٤١) كما في صحيح البخاري (٣٦٤١)، وصحيح مسلم (١٩٢٠) أن النبي ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

(٤٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، (١٧٩/٤).

(٤٣) صحيح البخاري (٣٢٣١)، صحيح مسلم (١٧٩٥).

(٤٤) ورد في ذلك عدة أحاديث، كما في مسند الإمام أحمد (١٤٩٤)، والترمذي (٢٣٩٨)، وقد بوب البخاري: باب أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل.

المصادر والمراجع

١ – معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، تحقيق: مُحَمَّد النمر، عثمان جمعة ضميرية، وسليمان الحرش، طبعة: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٢ – جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٣ – صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، طبعة: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٤ – سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني، طبعة: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

منهج أهل الباطل في قلب الحقائق دراسة عقدية تحليلية في ضوء القرآن الكريم ـــــــ

٢١- موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، طبعة مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٢٢- الإساءة إلى الأنبياء وأساليب التعامل معها في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، للباحث: إسحاق بن عبد الله سماكي، وإشراف: أ.د عادل بن علي الشدي، من مطبوعات: كرسي المهندس عبد المحسن الدريس، بجامعة الملك سعود، طبعة: الهيئة العالمية للكتاب والسنة.

٢٣- الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره، لأحمد بن مُحَمَّد بن حاسن القرشي، طبعة: دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، وهي في أصلها رسالة ماجستير مقدمة لقسم العقيدة وأصول الدين بكلية الدعوة بجامعة أم القرى، بإشراف: د. عبد الله بن عمر الدميجي.